

التاريخ في سبر أبطار

ابراهيم لنكولن

هجرة الاصراع الى عالم المدنية

للأستاذ محمود الخفيف

— ٤ —

يا شباب الوادي ! خذوا معاني العظة في
نفسها الأعلى من سيرة هذا المصطفى العظيم

وماذا يصنع وقد خذل في الانتخاب وآل الحانوت إلى
ما آل إليه جزاء بما فعل صاحبه ؟ الحق أنه ألقى نفسه في مأزق
ولعله كان يندم بينه وبين نفسه أن ترك حياة الغاية ... ماذا يصنع
ابراهيم ليكسب قوت يومه ؟ ليس أمامه الآن غير التجارة ، لذلك
أخذ له شريكاً واشترى ما بقي من الحانوت من ذلك الرجل الذي
اشتراه من قبل وعاد يبيع الناس من بضاعته ، وقد حمل السب
كله إذ كان صاحبه لا يكاد يفيق من سكره . على أنه كان عبثاً هيناً
إذا كان البيع قليلاً لقلة البضاعة ولقلة المشتري . وكان في البلد
حانوت آخر سطا عليه أولئك الفتية المتمدنون لما شجروا من خلاف
بين صاحبه وبين زعيمهم آدمسترنج ، وعرض صاحب ذلك
الحانوت بضاعته للبيع فاشترها ابراهيم ، ولكن بطريق الدين ؟

كتب على نفسه مائتين وخمسين دولاراً وعد بدفعها حين يتيسر
له ذلك ... ولكن صاحبه لا يكاد يفيق من سكره فهو كل عليه
أينما يوجهه لا يأت بخير ؛ وليس لدى أبيه مال ليدفع إليه نصيبه
ويخلص منه .

وأراد الله أن ييسر له أمره بعض اليسر ، فاختير حاملاً
للبريد في تلك الجهة ؛ اختاره القائمون بالأمر لما علموا من أمانته
ونشاطه ؛ وفرح ابراهيم بما ساقه الله إليه ، فقد حقت الخسارة
بالتجارة وخرج منها يدين أثقل كاهله كان يسميه لفداحته بالنسبة
إليه الدين الأهل ؛ ... فرح ابراهيم بعمله الجديد وأقبل عليه في
همة إذ أتاح له ذلك العمل أن يتصل بالناس وأن يتعرف أحوالهم
ويدرس طبائعهم من قرب ، وهو كلف بذلك حريص عليه يريد به
أن ينفذ إلى أعماق النفس كما هو شأنه في كل ما يمرض له .
وحبب إليه ذلك العمل ، فوق ما كان من اتصاله بالناس ، ما مرده
له من سبل القراءة ، فهو يقرأ الصحف قبل أن يعطيها أصحابها ،
وهو يلهم الكتب في ساعات فراغه التهاماً . وكان أكثر ما يقرأ
يومئذ كتب القانون ، ولعله كان ينوي أن يتخذ المحاماة عملاً له ،
فلقد كان الناس يأتونه ليحكموه فيما يشجر بينهم من خلاف ، وهو
عندهم القوى الأمين ؛ لا يتحيز إلى شخص أو فئة ، ولا يتعثر في
أمر ، ولا يسمح لأحد أن يلبس أمامه الحق بالباطل ، كل ذلك
في رفق ودراية ولباقة ... وكان إذا عرض له أمر رده إلى ما
عرف من القانون ليتبين وجهه ، أو أفاد من دراسته ويبحثه علماً
جديداً . وقد ألفت الأقدار إليه ذات يوم كتاباً في القانون يقع
في أربعة أسفار عثر عليه كما يثر على كثر . وبيان ذلك أنه اشترى
بشمن بخس من رجل انتوى الرحيل بعض متاعه ، وكان صندوقاً
به أوراق ، قلبه فعثر في قاعه على كنز وهو كتاب « نظرات في
تاريخ إنجلترا » لمؤلفه بلاكستون ، وكان من أشهر ما كتب في
القانون في تلك الأيام .

وهو يعيش اليوم على راتبه الضئيل من عمله في البريد ومما
كان يرسله الناس من قوت إلى الأسرة التي كان يقيم بينها نظير
ما كان يقدمه إليهم من نصيح أو يسوى بينهم من خلاف . وإنك
لتلمح شخص المحامي الناشئ في شخص عامل البريد هذا ...
على أنه تقدم فعلاً ليدافع عن بعض الناس أمام المحلفين في بعض

الجلسات القضائية في تلك الجهة . وعرف بسداد الرأي وقوة المارضة ومثانة الحجّة ، وما وقف يدافع يوماً إلا عما يعتقد أنه الحق

ومست قلبه في تلك الأيام لدعة من الألم ، فقد ألم به ما يلزم بالشباب من علل الشباب ، وانعقدت أمام بصره سحب قائمة من الهم كان مبعثها مآدب في قلبه من أمل جديد نحو أن ابنة صاحب الخان ، فلقد علم ، وهو صاحب البريد ، أن فتاها انصرف عنها ونسى ما كان بينها وبينه لما نزل بأبيها من فاقة ، وخيل إلى أبيب أنه اليوم يستطيع أن يصل إلى قلبها ، لولا مزاحم جديد يُدِلُّ عليه بماله وهو لا يدانيه في كفاية ولا خلق ... على أنه في خجله من النساء لا يعرف ما يأخذ مما يدع ، فهو في حيرة من أمره ، وهو كما علمت متقد الماطفة موفور القوة مشبوب الخيال ، وذلك ما صور له طيوفاً من الشجن أخذت تترايد حتى ليضيق بها قلبه ويكاد الأمر أن يصل به إلى القنوط . روى عنه أنه قال لأحد خلانه : « ربما ظهر مني حيناً أكون في رفقة أنني أستمع بالحياة في نشوة ، ولكنني إذا أويت إلى عزليتي أخذتني غالباً حال من الهم حتى لا أجرو أن أحمل مني مبرة »

وللشباب هواجس وأحلام يحار المرء في تفسيرها وتعرف مصدرها ، فهي من خفايا النفس الإنسانية ، وكثيراً ما ينقبض المرء وهو في حال من الرضا أو هو في مثل حال الرضا ... هل كان مردمه إلى طموح نفسه وتوئب همته ؟ أم كان ذلك إلى نوازع قلبه وهواجس خاطره ؟ هل كان أبيب يحب أن حقاً كما يكون الحب ، أم أن إحساسه بما ينقص قدره في أعين الفتيات كان هو مبعث هواجسه ومدعاة زلفاه ؟

إن في انصرافه إلى عمله وهو يحمل الخطابات في قبعته من دسكرة إلى دسكرة ما يلهيه بعض الوقت ، وإن له في الكتب لعزاء وسلوة : له في شكسبير وبرتر ما تأنس به روحه ويثلج خاطره ، وله في تراجم العطاء — وقد كان مقبلاً عليها — من معاني السمو ومواقف البطولة ما يبهج نفسه ويثبت قلبه

وأضيف إلى عمله في البريد عمل آخر دله عليه أحد خالصائه وهو تخطيط الأرض ورسم المصورات للطرق الجديدة التي كانت الحكومة تنشئها وتوضح معالمها للناس ليهتدوا بها في مسيرهم في تلك الأمصقاع . ولقد حذق إبراهيم هذا العمل الجديد وصار

بعد توزيع البريد — وهو قليل — يحمل منظاره ولوحته وقلبه ويتنقل بين الأحرار يرسم الطرق ، وكان يأتي ذلك بما عرف عنه من الدقة في كل ما يمهّد به إليه ... ولكن الدائنين لم يدعوه فيما هو فيه ، فأقبل أحدهم وباع جواد إبراهيم وسرجه ولجامه في مزارد نظير ماله ؛ وقد عزّز على إبراهيم أن يشهد هذا البيع فابتعد حتى يتم ؛ ولكن صاحباً له يدعى جبرين تقدم فدفن المال المطلوب وخلص له الجواد ولقيه فقال له : « رد لي هذا المال حينما تصبح قادراً على ذلك ، فإن لم تقدر فلا عليك منه يا صديقي » وأراد بعض الدائنين أن يبيعوا تلك الأدوات التي يقتات من العمل بها فجمع لهم بعض ذوى البرودة من أهل الجهة ما كانوا يطلبون من المال وأعفوا أدوات صاحبهم من ذلك البيع . ولقد مات جبرين بعد حين وقام إبراهيم يرثيه فاستمعت عليه الكلمات ولم يجد لديه غير السموع

وجاء موعد الانتخابات وتقدم إبراهيم من جديد يقدم نفسه للناس ، وكتب له النجاح هذه المرة ؛ وذهب ليتخذ مقعده في مجلس النوبس نائباً عن جهة سنجمون وكان المبدأ الذي نجح عليه هو مبدأ المهووز إذا أردنا السياسة ، وهو مبدأ الفضيلة والنبل والسمو إذا أردنا الخلق ...

ذهب عامل البريد ومخطط الأرض إلى حيث يجلس مع المنتخبين ، وإن له في السياسة لشأناً بعد حين . هو الآن في الخامسة والعشرين وقد اختاره الناس لما خبروا من خلاله وما رأوا من من سعة اطلاعه ورجاحة عقله ؛ ولكنه فقير فكيف يذهب في ملابسه البالية إلى المجلس ؟ ... اقترض ذلك الشاب المدخر لرياسة أمريكاً في غد — بعض النقود فاشترى حلة جديدة وذهب إلى فانداليا عاصمة النوبس فالتحق مكانه بين ممثلي الولاية ... جلس يدرس ويفكر ، لا تفوته عبارة ولا نقلت منه قضية ، وكانت مشكلة السبيد تشغل بال الناس يومئذ في وضع من أوضاعها ، كما كانت تشغل بالهم أمور أخرى تنحصر فيها كانوا يتوخون من وجوه الإصلاح في التجارة والصناعة وسبل الاتصال . انتصح من خلال إبراهيم في المجلس ما عطف عليه القلوب ، فقد رأى منه زملاؤه الإخلاص والحماس في غير تعصب ، فهو يدافع عما يعتقد أنه الصواب أو الحق في قوة وفي إصرار يشبه العناد ، حتى إذا تبين له أن الحق في جانب مجادله سلم له في مرة تسليم

حصل بتغييره مبدأه على مراتب سنوى غير قليل ؛ وقد علم الناس أنه كان يقيم في منزل أنيق في سبرنجفيلد في قننه تلك الحديدة التى يضعونها هناك لمنع الصواعق . ولقد أسرف ذلك الخصم فى انظمن على ابراهيم وأعلن أنه يريد أن يحط من قدره فى نفوس الناس . فوقف ابن الأحرار ورد عليه بقوله : « رأى هذا السيد أن يشير إلى حدانة سنى ، ولقد نسى أنى أكبر فى العمر منى فى الأعياب الساسة وتجارهم . إني أود أن أعيش كما أود أن أرقى وأن تلحظ مكائفى ، ولكنى أفضل الموت على أن أحيا فأرى اليوم الذى أفعلى فيه ما فعل ذلكم السيد ، فأغير مبدئى من أجل ثلاثة آلاف دولار فى العام ، وأراني بعد ذلك مضطراً أن أقيم على رأس بيتى مانعة للصواعق لأحمي ضميراً آتئماً من غضب رب أسأت إليه » وإنك لتبين مهارته السياسية فوق ما تلح من صفاته فى هذا الخطاب الذى أرسله إلى أحد رجال الحزب الديمقراطى .

كتب لنكولن (١) « أثبتت أنك أذعت فى الناس أثناء غيابى فى الأسبوع الماضى أن لديك حقيقة أو حقائق لو أطلع عليهم الناس لقصت نهائياً على أملى وأمل ن . ادوارد فى حركة الانتخاب القاعة ، ولكنك تأبى عليك بماملتك إيانا أن تعلمها . وأنا أقول لك إنه ما من شخص يطلب الجليل أكثر مما أطلب ؛ كذلك قل فى الناس من يقبل الجليل كما أقبل ؛ ولكن الجليل إلى فى هذه الحال معناه الجور فى حق الناس ؛ ولذلك فإني أستميتحك أن تنصرف عنه . إن حيازتى ثقة أهل ستجمون ذات مرة أمر واضح ؛ فإذا كنت قد أثبتت أمراً من شأنه إذا عرف أن يحرمنى تلك الثقة ، سواء كان إثبات ذلك الأمر عن إصرار أو عن خطأ فإن الذى يعرف هذا الأمر ثم يخفيه إنما يخون صالح بلاده . وأنا لا يقوم فى ذهنى شيء عما عساه أن تكون الحقيقة أو الحقائق التى تتحدث عنها واقعية كانت أو مزعومة ؛ بيد أن ما أعهدك فيك من الصدق لا يسمح لى برهة أن أشك فى أنك على الأقل تعتقد ما تقول . إني أراى مديناً لك بهذا الاعتبار الشخصى الذى أظهرته نحوى ، ولكنى آمل أن ترى إذا تأملت من جديد أن صالح الناس أهم من ذلك . وعلى هذا فلا تتخرج أن تعلم الحق . وأؤكد لك أن ذكرك ما لديك من الحقائق فى صدق وأمانة لن يفهم ما بينى وبينك من عرى الصداقة . هذا وإني أرجو أن

الرضا والقبطة . ورأى منه زملاؤه فوق ذلك قوة فى التعبير عما يريد كان مبمها حسن اختيار اللفظ أو كان مبمها لقانة تواتيه بالكلمة المطلوبة لا تزيد ولا تنقص . ولقد أعجبوا منه بتلك الخلة التى ستكون فى غد جانباً من أهم جوانب زعامته ... وأنسوا منه خارج المجلس إلى خلة أخرى من خلاله اشتهر بها منذ كان فى الثابة ، تلك هى تلاوة الحكايات ، فهو ما يقتضى يقص عليهم من قصصه ما يطربهم ويمجهم

وكان ابراهيم يزور نيوسالم كلما سمح له وقته بزيارة . وهو اليوم يحب أن كما يكون الحب . أكبرت صفاته وأعجبت برجولته وصارت لا تمدل به غيره ؛ ثم أحبته وليس بعد الحب رابطة . وألنى ابراهيم نفسه — وهو من عرفت قوة طائفة وصحة وجدان — فى ربيع العمر حقاً ، لا يرى حوله إلا جمال الربيع ونشوة الربيع ، ولا يحس إلا سر الربيع ووحى الربيع ، روح ويندو مع صاحبته وكأنهما من فرط مرحهما طائران من طيور الخائل ... ولكن وأسفاه ! لن يطول هذا الربيع ، بل إنه لينقلب إلى جحيم فى سرعة خاطفة ! ... نزلت الحى كما نزلت من قبل فى كنتوكى فكان من ضحاياها طائر الجليل ؛ وغدا ابراهيم يرمض الحزن قلبه ويأكل الجوى أحشاه ... وتلك هى الصدمة الثانية بعد فجيعته فى أمه تحل به ، فكأنها الضربة تأتية فى مقتل ؛ لقد وهنت عزيمته وخارت قوته وذوى عوده ، وصار الناس يرونه أحياناً هائماً على وجهه وهو يهذى كأن به جنة ، حتى نصح له طبيب أن يرحل ، فنزل ضيفاً عند أسرة صديقة كانت تقيم فى مكان بعيد عن نيوسالم ، ولكن همه ذهب معه إلى هناك حتى لقد شاطره الحزن ذات ليلة نفر من جلسائه حين مغموه يصرخ من أعماق قلبه : « لا أطيع أن أذكر أنها ترقد هناك وحدها حيث ينزل المطر وتصخب الماصفة فوق قبرها » ولكم قطع من الأميال مرات بعد ذلك على قدميه فحج إلى ذلك القبر وبالله بدمعه !

ولكن اليأس يسلمه ثانية إلى الحياة حيث لا حيلة فى البلوى ولا ممدى عن الحياة ... ويحين موعد الانتخابات مرة تالفة فيتقدم فيفوز وقد ازداد الناس محبة له كما ازدادوا له إكباراً بقدر ما اكتسب من خبرة فوق ما سلف من خبرته ، وأظهرته الانتخابات هذه المرة للعامة خطيباً كأحسن ما يكون الخطيب ، قام يحمل عليه أحد خصومه من الحزب الديمقراطى ، وكان قد

(1) Speeches and Letters of Abraham Lincoln P. 2.

يتخذ اليوم ابراهيم لنكون مكانه للمرة الثانية في مجلس مقاطعة النيوس وهو في السابعة والعشرين ، ولا يدري هو ولا من يحيطون به من ممثلي الجهات في ذلك المجلس ماذا يجتبه القدر لذلك الرجل الطويل القامة ، عامل البريد ، مخطط الأرض ، ابن الأحرار ، ربيب السر والفاقة وعن الأيام !

(يتبع) الخفيف

الفصول الغائبة

في فتح نيكول الله المولى

لإمام الحكماء أبي الملاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المري
المولود سنة ٤٤٩ هـ المتوفى سنة ٤٩٢ هـ

قصد أبو الملاء بهذا الكتاب الافادة والتعليم ، فتناول فيه عدة علوم ومعارف من شتى الفنون ، وتخير لذلك أجل مظهر وهو تعجيد الله وعظمة الناس ؛ فحسب من لم ير الكتاب أنه انما ألفه ليجارى به القرآن الكريم أو يعارضه . ورتبه على فصول بعدد حروف الهجاء ؛ أما الغايات فهي خاتمة كل فقرة منه ، وهي عنده بمنزلة القافية من بيت الشعر . وجد منه (الجزء الأول) وينتهي بانتهاء حرف الخاء . وقد ظل مفقوداً هذا الدهر الطويل حتى انتهى الجزء الأول منه إلى المرحوم تيمور باشا ، ووفق الله لضبطه بالشكل الكامل وشرح غريبه والتعليق عليه الأستاذ :

محمود حسن زياتي

أسرة الخزانة الرعية (سابقاً)

وطبعه على ورق جيد ، وتبلغ صفحاته ٤٩٤ ، ووضع به لوحتين بالفتوغراف من النسخة الأصلية التي طبع منها وهي المحفوظة بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية . وهو يطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة ، ويباع في جميع المكاتب الكبيرة وثمنه ثلاثون قرشاً ساعاً غير أجرة البريد

يأتيني رد منك على هذا ولك الحرية أن تنشر الكتابين إذا أردت .

اقرأ هذا الخطاب تركيف ملك إبراهيم قلوب الناس بأمانته وإخلاصه ودمايته . ثم انظر إلى قوة حجته ووروعة منطقته ودهائه ؛ وتأمل في أدبه ونحشمه وهو يرد الالهانة عن نفسه .. تلك لعمري خلال أحرار الشماثل وعطاء الرجال ...

فاز لنكون في الانتخاب وحق له أن يفوز . ولقد خطب الناس مرة فكان مما قاله : « سأسى أن يفوز جميع البيض من يدفع منهم ضرائب ومن يحمل السلاح بحق الانتخاب (لا أستثنى من ذلك النساء بأي حال) فإذا انتخبت فسأعتبر أهل سنجمون جميعاً هم مرسلين سواء من اختارني منهم ومن لم يفعل ، وحينما أعمل في المجلس كنائب عنهم سوف أصدر في عملي عن إرادتهم في كافة الأمور التي أستطيع أن أعرف إرادتهم فيها ؛ وفي غير ذلك سأسير وفق ما يعلية على تقديري مراعيًا مصالحهم أبدأ »

ذلك هو دستور لنكون وتلك هي أخلاقه في مجال السياسة ذلك المجال الذي سينضج فيه شخصه وتكتمل رجولته وتبرز مواهبه وتسفر مظاهر عبقريته . كان له في المجلس أصدقاء منهم ثمانية كانوا مثله في طول القامة ، ولقد كانوا يجلسون رفقة يتحدثون ، فمرفوا باسم التسعة الطوال ، ولكن إبراهيم كان أطولهم باعاً في المعرفة وأعلام مقاماً في الخلق ، فلقد ظهرت صفات ابن الغابة لهم في وضوح ، فهم معجبون بدمايته وأناته وبعد نظره ، وهم مفتونون ببلاغته وأسلوبه في الحوار والمجادلة ، وهم يقبضونه على سعة صدره وشجاعته وصراحته ، يحمدون له رفقة عاطفته وشغفته وسلامة طويته ، وهم فوق ذلك يلزم حديثه وتطربهم أقاصيصه ويأسر قلوبهم تواضعه وأدبه وسداجته

وإنه اليوم ليقراً قراءة منظمة فقد مرّ العهد الذي كان يتناول فيه أي كتاب يصادفه . هو اليوم بقلب صفحات التاريخ فليس ألزم منها لرجل السياسة ؛ وهو يستزيد من القانون نصوصه وفقهه ؛ وهو يدرس أحوال أمريكا من شتى نواحيها ؛ يطيل النظر في تاريخ ساستها ويتأمل في مناهجهم في الإصلاح وأساليبهم في توطيد سياستهم ؛ يستوعب ذلك كله ليسير على ضوئه فيما هو مقبل عليه . ومما استرعى اهتمامه يومئذ مسألة العبيد وتاريخها وتطورها ومكانها من السياسة العامة